



Mohamed Reda Boudchar (dirasat) & Mohamed Abd al-Moumen (tarjamat).- *Al-Andalusiyyūn al-Hurnatshiūn. Min al-murāqabati 'ilā al-'iqābi (Ṭiṭwān: Manshūrāt Bāb al-Ḥikma, 2020), 216p.*

الأندلسيون الهورناتشيون. من المراقبة إلى العقاب، ترجمة ودراسة لوثائق من الأرشيف الإسباني. دراسة: محمد رضى بوششار، وترجمة: محمد عبد المومن (تطوان: منشورات بيت الحكمة، 2020)، 216ص.

الأندلسيون الهورناتشيون أو الحرناشيون حسب بعض المصادر المعاصرة لهجرتهم إلى المغرب، هم من أعقاب الأندلسيين المهجرين من شبه جزيرة إيبيريا منذ سقوط مملكة غرناطة سنة 897هـ/1492م؛ والذين استمرت إقامتهم بالوسط الغربي لإسبانيا في منطقة هورناتشوس (Hornachos) بإقليم إستريمادورا، الذي عرف في الجغرافية العربية بالثغر الأدنى الأندلسي، أو بكورة بطليوس نسبة إلى عاصمتها التي تحمل نفس الاسم، وهي مدينة إسبانية قريبة من الحدود البرتغالية الشرقية، وتدعى حالياً باداخوس (Badajoz).

نُقدّم في هذا العرض أحد الكتب الصادرة عن هذه الجماعة من المسلمين ممن تأخر ترحيلهم من الأندلس إلى ما بعد الطرد الكبير الذي تعرض له هؤلاء الأندلسيين المهجرين إلى أقطار دار الإسلام، والذين كانوا موضع ريبية في صدق تنصرهم. وبالنظر إلى كثرة الشكوك حولهم، خضع الهورناتشيون لمراقبة مشددة، سواء من قبل الحكومة الإسبانية، أو على يد رجال الدين ومخبريهم، فكانت نتيجة تقصي أخبارهم وتتبع أنشطتهم واتصالاتهم تفضي في غالب الأحيان إلى التأكد من استمرار اعتناقهم لديانتهم الأصلية وأخذهم بمبدأ التقية تجاه الإسبان المتغلبين على بلدهم. وهذا ناهيك عن قيامهم بكثير من ردود الأفعال الدفاعية والانتقامية بإسبانيا، والتي شكلت الجانب العملي من مقاومة الاضطهاد والتنصير القسري، والظلم الطائفي والتعصب الديني. ومن أشكال المقاومة هذه، سجل الأرشيف الإسباني أعمالاً شتى؛ بداية بالتخفي عن محاكم التفتيش، وقيامهم باغتيال المسيحيين، وحيازتهم نسخ القرآن الكريم وكتب الشريعة الإسلامية، واستعمالهم اللغة العربية، واحتفالهم بالأعياد الإسلامية، وتأطيرهم هذه الأقلية المسلمة لأنفسهم سياسياً، وتنكر بعض أفرادها في زي الرهبان والاحتفاظ بلحوم الخنزير، وإمعاناً في معاداتهم للغزاة، مارس الهورناتشيون اللصوصية وقطع الطريق ومحاولة قتل حكام بعض البلدات، والتخلص من آثار تعميدهم. وبصرف النظر عن مدى صدق كل ما جاء في وثائق الأرشيف الإسباني من تهمة وادعاءات موجهة في حق هذه الجماعة، فإنّ التاج الإسباني قرر خلال في مرحلة أولى معاقبتهم جسدياً ومالياً، قبل أن يتقرر طردهم، بإيعاز

من رجال الكنيسة، نظرا إلى نفوذ كلمتهم بالبلاط والكورتيس، عن طريق استصدار قرار نفيهم إلى شمال إفريقيا. وعقب صدور هذا القرار استمرت أصداء هذه الجماعة بشكل أقوى داخل إسبانيا؛ فعند حلولهم بالمغرب الأقصى، اتخذوا من مدينة سلا معقلا لهم، محولين المدينة إلى ما وصف في بعض الكتابات بجمهورية للقراصنة (الجهاديين) الأندلسيين، والذين طبقت شهرتهم آفاق المعمور منذ القرن السابع عشر، نتيجة ممارستهم للجهاد البحري ضد الأساطيل الأوروبية، والتي كابدت دولها وحكوماتها وشعوبها الولايات من أجل مواجهتهم تارة، ومفاوضتهم تارة أخرى، مجبرة على دفع فديات لهم تراوحت قيمتها ما بين 1000 و14000 ريال، من أجل افتكاك الأسرى الأوروبيين من أيادي مسترقيهم.

اشتمل كتاب الأندلسيون الهورناتشيون من المراقبة إلى العقاب، على مقدمة وفصلين، أولهما عبارة عن دراسة عن أعقاب الأندلسيين المهجرين من منطقة استريادورا؛ وفصل ثان يتضمن ترجمة عربية لمجموعة من الوثائق الإسبانية التي استخلصت جلها حديثا من أرشيف سيمنكس العام والأرشيف التاريخي الوطني والمكتبة الوطنية الإسبانية، وتمت ترجمتها بشكل يراعي تطابق الأسماء والأعلام الجغرافية والألفاظ الحضارية في اللغة العربية؛ وأخيرا خاتمة تبين أهمية الأرشيف الإسباني في حفظ تاريخ الأندلسيين المتأخرين، والذي يعوض النقص الحاصل سواء في المدونات التاريخية الإسبانية أو في المصادر العربية. ويتكون الفصل الأول من ثلاثة مباحث؛ يتعلق أولها بإجراءات المراقبة وظروفها التي فرضتها السلطات السياسية والدينية الإسبانية بمؤسساتها المختلفة المتكونة من عمدة الإقليم وحكام البلديات التي يقطنها الهورناتشيون، والأسقفيات، إلى جانب محاكم التفتيش المستحدثة لهذا الغرض منذ سنة 1478م، والتي تحول دورها بعد ظهور تختيارهم بين التنصير والطرده سنة 1502م، إلى مراقبة جميع مناحي حياة المسلمين، عبر إعداد تقارير تخصهم وتبادل الرسائل مع السلطات بشأنهم. ويبرز هذا المبحث كيفية انتقال هذه المراقبة بعد فشلها في التنصير والإدماج الروحي والثقافي للجماعة الإسلامية بإسبانيا، إلى الاقتناع بضرورة منعهم من ممارسة أي نشاط يمت بصله إلى الإسلام. وتناول المبحث الثاني إجراءات العقاب التي اتخذتها السلطات الإسبانية ضد الهورناتشيين، بسبب استمرارهم في اعتناق الدين الإسلامي، وقد تنوعت صنوف هذه العقوبات بين العقاب الجسدي، والغرامات المالية، تبعا لطبيعة التهم الموجهة إليهم، والتي تراوحت بين القتل حرقاً وبين التعذيب بطرق عنيفة وقاسية جدا، وبين المصادرة للأموال والكتب وتغريمهم بمبالغ ثقيلة، ونفيهم خارج بلداتهم لمدة طويلة. ثم بلغت العقوبات أقصى مداها مع إصدار قرارات الطرد الجماعي للموريسكيين سنة 1609م، فجاء هذا الإجراء ليقدم الحل الحاسم والأخير الذي لجأت إليه السلطات الإسبانية عقب استفادها كل البدائل الأخرى. أما المبحث الثالث، فيتناول انتقال الهورناتشيين من إسبانيا إلى بلدان شمال إفريقيا، حيث شكل

منعظفا حاسما في تحول الموريسكيين من الدفاع والاستماتة على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، إلى الهجوم والانتقام والمبادرة إلى ردود الأفعال القوية بُعيد انتقلهم إلى العدو المغربية، وممارستهم للجهاد البحري الذي استهدف بشراة السواحل والسفن الإسبانية والبرتغالية على وجه الخصوص. وأفضى هذا التحول إلى إحداث نوع من التوازن في ميزان القوة نسبيا، حيث أسفر القرار عن إيجاد أعداء متربصين بالإسبان في عرض البحر المتوسط والمحيط الأطلنتي، ومغاورين لسواحل الوطن الأم الذي تنكر لهم ولفظهم من أرضهم وفصلهم عن ذويهم.

أما الفصل الثاني، فيشتمل على مجموعة قيّمة من الوثائق انتقاها الباحثان لتكون مطابقة للحوادث المؤرخة في الكتاب، وموازية للقضايا التي تطرحها الوثائق المترجمة بشكل يغطي جميع مراحل التاريخ الخاص بهذه الجماعة المسلمة، بدءا بمرحلة وضعها من قبل الساسة والكنيسة الإسبانيتين تحت المراقبة والتشديد على حرياتهما ومحاولة طمس هويتها، إلى مرحلة العقاب والتنكيل بشتى صنوفه ومصادرة لحقوقها الفردية والجماعية، وانتهاء بمرحلة إصدار قرار طرد هذه الأقلية المسلمة من إسبانيا، وانتقالها إلى العدو المغربية.

وقد اشتملت الوثائق الستة والثلاثون على مرسوم التنصير القسري لمسلمي قشتالة، والذي كان يتضمن بوادر قرار الطرد ضد الموريسكيين منذ صدوره، كما اشتمل المرسوم نفسه على أقوى عبارات القسوة والتشديد في ترهيب المسلمين "المتنصرين". وتتضمن مجموعة الوثائق المترجمة محاضر اعتقال عدد من الهورناتشين، ومراسيم تتعلق بمنع إطلاق الهورناتشين لأسماء إسلامية على أبناءهم، وبتعيين كهنة لتعليم هؤلاء أسس العقيدة الكاثوليكية، ورسائل وتقارير صادرة عن حكام البلدات التي تقطنها أغلبية من الهورناتشين، وأخرى صادرة عن قضاة محاكم التفتيش الدينية عن الحوادث الجسيمة التي كانت الساكنة الموريسكية طرفا متورطا فيها.

في حين تتعلق الوثائق 20 و21 و22 بمراسيم ملكية إسبانية تقضي بطرد الموريسكيين نهائيا ودون رجعة من مملكتهم، والتي اشتملت على قرارات في غاية القسوة، نذكر من بينها تجريدهم من أموالهم وحليهم ومنازلهم وعقاراتهم ومواشيهم، والفصل بين المرأة وزوجها وبين الآباء والأبناء، وتشديد العقاب بالموت لكل من خالف هذه القرارات؛ حيث نصّت أحد البنود (الوثيقة رقم: 22) على منع الموريسكيين باصطحاب أبنائهم البالغين أقل من خمس سنوات، وعلى المكلفين (الإسبان) أن يلجئوا إلى الترغيب والترهيب، كأن يقولوا أن الرحلة مهلكة للأطفال، أو أن يقترحوا عليهم دفع ثمن الرحلة مقابل التخلي عن الأطفال.

في حين أن الوثائق التي تدبّل هذا الفصل، والتي جاءت لاحقة لقرارات الطرد والنفي، فقد تناولت قضايا مختلفة إلى حد بعيد عن كل الوثائق السالفة، ويتعلق الأمر بالوثائق: 34 و35 و36 الخاصة بافتداء الأسرى الإسبان المحتجزين بالمغرب عبر مرافئ طنجة وتطوان وسلا. وتشتمل إحداها (الوثيقة رقم: 35) على جدول تركيبي يبين هويات الإسبان المأسورين

ومواطنهم الأصلية ومناطق أسرهم وأسريهم وقيمة فدائهم والسنوات التي قضوها في الأسر، والتي تراوحت بين سنتين ونصف في الأدنى وبين سبع سنوات في الأقصى.

وجاءت خاتمة الدراسة مؤكدة على أهمية الأرشيف الإسباني في حفظ تاريخ الأندلسيين المتأخرين، في مختلف تفاصيل حياتهم، وتفاعلاتهم المحلية والدولية مع الإخوة والأعداء، منذ بداية التنصير إلى غاية الطرد، موازاة مع عمليات المقاومة والانتقام؛ وهو الأمر الذي نفتقده في المدونات التاريخية الإسبانية، كما نعدمه في المؤلفات العربية. وأبرزت الخاتمة قيمة هذا الأرشيف في التأريخ لمرحلة ما بعد طرد الأندلسيين المتأخرين من إسبانيا؛ بالنظر إلى كونه قد تتبع هجرة الهورناتشيين إلى المغرب، وممارستهم القرصنة (الجهاد) البحرية انتقاما من المسيحيين وبحثا عن موارد مالية مهمة تليق بمجموعة بشرية مالت إلى الاستقلال الذاتي في غياب أنشطة إنتاجية كفيلة بذلك، دون أن يغفل عن رصد تنسيقها مع ذوي الخبرة والتجربة من الجزائر وتونس، ومع بعض الأوروبيين الذين شاركوهم الرهانات والأهداف. وقد تم الخلوص إلى التأكيد بأن تجربة الهوناتشيين تشكل نموذجا لشراسة المقاومة وحفظ الهوية من الذوبان والانصهار في ثقافة الغالب، ونموذجا لتحصيل الموارد المالية في ظروف سياسية واقتصادية صعبة، مما مكنهم من نيل سمعة دولية والجلوس على طاولة المفاوضات مع عدة أطراف أجنبية.

وإجمالا، نخلص إلى القول إنَّ من حسنات هذا الكتاب أنه جاء نتيجة جهود مشتركة بين باحثين مشتغلين بتاريخ الأندلسيين المتأخرين ولديها اطلاع على ذخائر الأرشيفات الإسبانية الدفينة عن هذا التاريخ، والتي تحجبها المسافة النائية واللغة المستعصية على كثير من الباحثين من قراء اللغة العربية، كما أن الكتاب انبثق من بين دفتيه عملاً لباحثين تفصل بينهما مجموعة من الفوارق، وتتكامل بينهما أدوات البحث والتنقيب والترجمة والتعليق؛ فأحدهما وهو محمد رضى بودشار، من جيل الباحثين المخضرمين، والذي اشتغل طيلة العقدتين الأخيرين على وثائق الأرشيفات الإسبانية، التي تتصل بمباحث تاريخ الأندلسيين المتأخرين المهجرين من بلدهم نحو بلاد المسلمين الأخرى. وأمّا زميله الآخر، فهو محمد عبد المؤمن، من جيل الباحثين الشباب، الذين أثروا الاحتكاك بالمصادر الإسبانية ترجمة ودرسا وتعليقا. وقد أثمر هذا التكامل الإيجابي على المستويين المنهجي والمعرفي، فأتاح إمكان إصدار هذا المؤلف المشترك بينهما، والذي تطبعه الصرامة المنهجية من حيث الوصف والتحليل والتركيب والتفسير واستخلاص النتائج، فضلا عن متانة لغة التعبير عن مجريات الأحداث والوقائع، وسلاستها، المشفوعة برشاقة الأسلوب وزجالة الألفاظ ودقة المعاني والمفاهيم.

عبد السلام الجعماطي

أستاذ باحث، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بطنجة

المغرب